الباب الثالث

الأمة: إطار المرجعية والعالمية في الفكر العربي والإسلامي

الفصل الأول: الأمة، الكيان التاريخي الناظم لحركة التجديد والاجتهاد

الفصل الثاني : المرجعية، أرضية العمل التجديدي النهوضي وثوابته

الفصل الثالث: العالمية، المجال الكوني للعمل التغييري والدعوي، ومنهجية الاستيعاب والدمج والتجاوز

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول:

الأمة الكيان التاريخي الناظم لحركة التجديد والاجتهاد

أولاً: في المصطلح والمفهوم

تأتي الأمة في القرآن على خمسة أوجه، وهي: الجماعة: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، والملة: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣]، والحين: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]. والإمام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل: ١٢٠] والصنف: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، وفي قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] هي مثل السنة، أي على دين مجتمع. وقوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣]، أي كانوا على دين واحد.. وقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] يتخيرون العلم والعمل الصالح ويكونون أسوة لغيرهم.

وقد جاء لفظ أمة بالنصب في الآيتين على الحال والخبر قد تم في قوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾، أي هذا الجمع من الأنبياء والمرسلين أمتكم أي: جماعتكم. حال إنها أمة واحدة، هذه هي ملتكم ودينكم، وهو أمر واحد لا تعدد فيه، وهو الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨].

ويقول صاحب المنار: فالمراد منه أن الناس كانوا ولا يزالون أمة واحدة، ونشأ عن هذه الوحدة نفسها اختلافهم، وكان الله سبحانه يقضي في الخلاف بإهلاك من ينحرف منهم عن سبيل الفطرة السليمة، فلا يبقى من الناس إلا من استقام

عليها، ولكن سبقت كلمته، وثبت في علمه وتم في مشيئته أن يكون الناس في أمرهم كاسبين سعيهم، مكلفين بالنظر فيما بين أيديهم من الآيات، وأن يكون منهم الضال والمهتدي، والعادل والمعتدي، حتى يوفي كلاً جزاءه في الدار الأخرى، ولهذا بعث فيهم الرسل عليهم الصلاة والسلام ليكونوا لهم أئمة في الإيمان وأسوة في العمل الصالح. وقال: خلق الله الإنسان أمة واحدة أي مرتبطاً بعضه ببعض في المعاش لا يسهل على أفراده أن يعيشوا في هذه الحياة الدنيا إلى الأجل الذي قدره الله لهم إلا مجتمعين يعاون بعضهم بعضاً، ولا يمكن أن يستغني بعضهم عن بعض.

إن "الأمة القطب.. تلك الجماعة القيادية المميزة ذات القدرة الاستقطابية العالية، والتي تؤدي إلى آثار مزدوجة من حيث تماسكها الداخلي وانفتاحها، أو جاذبيتها بالنسبة للغير على المستوى الخارجي. فالأمة بهذا المعنى تصير هي المستودع للرسالة المحمدية، أي إن الأمة هي وعاء القرآن الكريم..".

إن الأمة بهذا المفهوم «تتكون من شعوب وقبائل في أقطار وأقاليم، ولكنها مع هذا تظل أمة واحدة جمعتها العقيدة، وربطت بينها الشريعة، ووحَّدت بين أذواقها ومشاربها القيم والآداب الإسلامية، وعاشت تاريخاً مشتركاً في انتصاراته ومآسيه، وعانت حاضراً مشتركاً في آلامه وآماله. ولهذا لا يجوز لنا أن نقول: "أمم إسلامية" بل "شعوب إسلامية" لأمة واحدة خاطبها الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]. إنها أمة واحدة في الغاية والوجهة.. واحدة في الأفكار والمفاهيم.. واحدة في المشاعر والأحاسيس.. وقد صوَّر رسول الله ﷺ وحدتها في ذلك فمثلها بالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.. والأمة الراشدة كما يقول ماجد عرسان الكيلاني لا ينال من وحدتها تنوع الشعوب والقبائل فيها، ولا اختلاف الألوان والمهن والأماكن ما دامت ولاءاتها تدور في فلك الرسالة وحدها، ولا تدور في فلك الأشخاص والأشياء. و"العنصر الرئيس في مفهوم الأمة هو عنصر الرسالة،

أي العطاء الذي تقدمه جماعة من الناس إلى بقية مجموعات الإنسانية، واستمرار الأمة في الحياة المختلفة..

وقد تحدث القرآن الكريم عن بعض خصائص هذه الأمة، اختزلها البعض في ثلاث رئيسية: الوسطية: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والاجتباء: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]. ومثله آيات الوعد بالاستخلاف والتمكين في الأرض: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]. والابتلاء أو التمحيص: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وبالنظر إلى تداول المصطلح في الحضارة الغربية الحديثة، يمكن أن نقول: إن الاستخدام الأوربي لمصطلح Nation الذي درجت ترجمته لغوياً وشاع استخدامه اصطلاحياً بتعبير «أمة» خضع لتأثير التطورات التاريخية في تشكل الدولة ضد الأمة، Etat – national، وهو تشكل تاريخي يصعب التمييز فيه بين أسبقية الجانبين (الأمة والدولة). ومهما يكن من أمر هذه الجدلية التي برزت من خلال النص الفكري ولا سيما ابتداء من (ق ١٨) ومن خلال الحدث (الثورة الفرنسية وامتداداتها في أوربا وترسخ مركزية الدولة فيها)، فإن مصطلح الـ Nation لم يكن يملك الدلالة نفسها قبل ذلك. إذ لم يكن يعني ذلك التشكل القانوني المؤسسي لتدامج هذين الطرفين (الدولة والأمة) ولقيام علاقة محددة بين الفرد والدولة، تنتظم في سياق أيديولوجي وسياسي وقانوني يطلق عليه القانونيون والمنظرون الدستوريون تعبير Nationalité أي الانتماء لأرض ودولة وأمة في كيان واحد.

إن سيادة مصطلح "الأمة" في الحضارة الغربية كان «في مرحلة تبلورت فيها القوميات على أنقاض الرابطة اللاهوتية المسيحية الجامعة. ويتردد هذا المصطلح في

الحضارة الغربية في علاقته وتداخله بالدولة بين أشكال من التحديدات والضوابط الآنية والجغرافية والسياسية والاقتصادية المساعدة على التمايز الداخلي وإقامة الفوارق والخصوصيات، فضلاً عن الرغبة الجامعة للحضارة الغربية في التوسع والهيمنة حيث تتحول الأمة إلى الدولة المتوسعة.

والأمة العربية تكونت حصيلة عملية تاريخية لعبت فيها الدعوة واللغة الدور الأكبر، ولم تكن الجغرافيا غير أداة تقنية لتحديد العلاقات، وكانت الأمة خلال مختلف مراحل تاريخها مجتمعاً مفتوحاً يستوعب غير المسلمين من أهل الذمة كما يستوعب الشعوب الوافدة، وكان هذا المجتمع على استعداد دائم للتوسع خارج حدوده الجغرافية بتأثير الدعوة لا بالغزو والسلاح..

وإن كانت الأمة "تشارك سائر الأمم في كونها حقيقة تاريخية" فإنها على مستوى التواصل الزمني وفي إطار تجاوزها للتعدد والتنوع الجماعي والحضاري.. تستقل عن غيرها من الأمم وتستأثر ببعد موضوعي يطلقها من النسبية التاريخية. ولذلك وقفت هذه الحضارة ولغتها بمضمون ومفهوم "الأمة" عند مضمون الرباط الجامع للجماعة أياً كان هذا الرباط، حتى يظل الباب مفتوحاً للتأليف والاستيعاب. ويدعم هذا التوجه عالمية الرسالة الإسلامية وأهمية العقيدة في الدين الإسلامي، وكونها الرسالة الخاتمة التي جاءت لتستوعب ميراث الماضي - بالإحياء والتجديد- ولتصوغ منه -بمعايير الإسلام- حضارة مستقبلية ذات نزوع عالمي لا تنكر التمايزات بين الجماعات البشرية، ولا تحاربها، بل تهذب شذوذها لتوظف التعددية القومية في بلورة وإنماء وتطوير حضارة ذات نزوع عالمي..

ثانياً: في الإجماع الشرعي للأمة ودلالته التاريخية والواقعية.

يقسم العلماء العلم بالنظر إلى حامله أو متعاطيه إلى صنفين: "علم عامة" و"علم خاصة"، وإن كان في صورة إجماع إلى "إجماع عامة" و"إجماع خاصة".. وهذا كما يرى الشافعي هو العلم العام الذي لا يمكن فيه الغلط في الخبر، ولا التأويل،

ولا يجوز فيه التنازع. وقوة الإجماع هي في استناده إلى نص قاطع وإلى تواتر في النقل وفهم لا نزاع فيه، وعدم غفلة عن معنى كتاب ولا سنة ولا قياس.

وواجب للعلماء هاهنا إشراك الأمة في هذا الإجماع تفهيماً وتعليماً وعملاً وتنزيلاً، والمشاركة ببذل الجهد كل حسب طاقته ووسعه. يقول الشافعي: "ونعلم أنه إذا كانت سنن رسول الله لا تعزب عن عامتهم وقد تعزب عن بعضهم، ونعلم أن عامتهم لا تجتمع على خلاف لسنة رسول الله ولا على خطأ إن شاء الله". ويجعل الخطيب البغدادي الإجماع على ضربين: إجماع الخاصة والعامة، وإجماع الخاصة دون العامة. وينقل الزركشي عن إمام الحرمين الذي دل عليه السمع صحة إجماع جميع الأمة، وقد ثبت أن الأمة عامة وخاصة، فيجب اعتبار دخول العامة والخاصة في الإجماع، وليس للخاصة إجماع على شيء يخرج منه العامة.. والعامة مجمعة على أن حكم الله ما أجمعت عليه الخاصة وإن لم تعرفه عياناً..

وجعله الشاطبي على ضربين: أحدهما لا يمكن أن ينقطع أصل التكليف، وهو الاجتهاد المتعلق بتحقيق المناط، والثاني يمكن أن ينقطع قبل فناء الدنيا، وهو ثلاثة أنواع: تنقيح المناط، وتخريج المناط، والثالث هو نوع من تحقيق المناط المتقدم الذكر... وقال الشيخ دراز معلقاً: "فالاجتهاد في الأحكام هو الضرب الأول الذي لا يخص طائفة من الأمة دون طائفة، وهو لا ينقطع باتفاق. والاجتهاد في درك الأحكام هو الضرب الثاني الذي يخص من هو أهل له. وذكر الشوكاني عن "الجمهور" أنه لا اعتبار بقول العوام في الإجماع لا وفاقاً ولا خلافاً، لأنهم ليسوا من أهل النظر في الشرعيات ولا يفهمون الحجة ولا يعقلون البرهان"، ثم استدرك بقوله: "وقيل يعتبر قولهم لأنهم من جملة الأمة، وإنما كان قول الأمة حجة لعصمتها من الخطأ، ولا يمتنع أن تكون العصمة لجميع الأمة عالمها وجاهلها..".

وأجاب الخطيب البغدادي على من تساءل حول جواز أن يقل عدد أهل الحل والعقد، فلو رجع إلى واحد، فهل يكون مجرد قوله حجة قاطعة؟، بقوله: "إن اعتبرنا

موافقة العوام. فإذا قال قولاً وساعده عليه العوام ولم يخالفوه فيه فهو إجماع الأمة فيكون حجة. إذ لو لم يكن لكان قد اجتمعت الأمة على الضلالة والخطأ، وإن لم نلتفت إلى قول العوام فلم يوجد ما يتحقق به اسم الاجتماع والإجماع. إذا يستدعي ذلك عددا بالضرورة حتى يسمى إجماعاً".

ويذهب ابن حزم إلى تأكيد حجية إجماع الأمة ببلاغ الرسول ﷺ في حجة الوداع إذ "لم يجعل رسول الله ﷺ ذلك التبليغ العام الذي أقام به الحجة في مكة في حجة الوداع، حيث قال: "ألا هل بلغت" فقال الناس: "اللهم نعم" فقال: "اللهم فاشهد" في خاصة من الناس، ولا بحضرة وجوه الناس خاصة دون الرعاع. ونظير هذا نجده عند ابن عاشور في محاولاته لرد الاعتبار للفقه الجماعي أمام غلبة الفقه الفردي إلى الاضطرار، وذكر أن النظر إلى الضرورة على قسمين: نظر إلى عموم الضرورة، ونظر إلى خصوصها، تلحق بالأولى تشريعات عامة وبالثانية تشريعات خاصة.

وفي فكرنا المعاصر نجد الحاجة ماسة اكثر إلى هذا النوع من الإجماع بما يحمله من قيم الوحدة والتوحيد في المجالات كافة، أمام ما ساد في واقع الأمة من أوضاع التجزئة والتخلف والوهن.... أمام واقع عالمي يتجه نحو التكتلات الجماعية والعمل المؤسسي.. وهذا ما دفع كثيرين - كما يقول الترابي - من كتاب الحقبة الراهنة إلى التأكيد من جديد على دور الأمة في العمل الاجتهادي والتجديدي، في العمل التغييري الإصلاحي والنهضوي المعاصر. فقد كان الإجماع هو إجماع المسلمين.. والشورى أيضاً للمسلمين.. وجعل الشورى بين العلماء.. والإجماع إجماع علماء ليس له مستند إلا الضرورة العملية التي كانت قائمة يومئذ، والمتمثلة في كثرة عدد المسلمين وصعوبة الاتصال والتنقل ودخول أقوام شتى إلى الإسلام..

ومن أهم الضوابط التي "تنظم المجتمع المسلم وتتدارك ذلك التباين": ضابط الشورى وضابط السلطان. فيتم ذلك التنظيم بالشورى والاجتماع ليتشاور المسلمون في الأمور الطارئة في حياتهم العامة... وعلى الدولة حين تصدر الآراء

والمذاهب أن تعقد الشورى وتقنن الآراء والأحكام المعتمدة... وأن تحتاط لذلك التقنين والتدوين تنظيماً مسبقاً لحياة المجتمع الرشيد.

ومن خصائص هذا الفكر كما يرى الترابي أنه: فكر وعي بالهوية الإسلامية، وإحياء نابض بالحيوية متحركاً بدوافع الإيمان نحو استكمال الهوية... وفكر انتقال: يحمل معاني التطور والعبور من حال إلى حال.. يضاف إلى ذلك تركيزها على عناصر مثل الواقعية، والاجتهادية المنهجية.

إن الاجتهاد بهذا الاعتبار كما يقول عبدالحميد أبو سليمان عمل فكري منهجي وجهد علمي متواصل، والأمة الحية ذات القوة المتطورة هي التي تجعل المنهجية الاجتهادية مدرسة وأسلوباً علمياً عاماً، يعمل به ومن خلاله شرائح المتعلمين والباحثين والعاملين كافة. والمجتهد بهذا المفهوم جزء من حركة الأمة "يُجسِّد فكرها الحي ومنهجيتها العامة" والإجماع هو حصيلة عملية الاجتهاد الجماعية التي يشارك فيها أفراد الأمة كل بقدر علمه ومعرفته. وقد أظهرت التجربة التاريخية أن النهوض بالشعوب يستدعي أول ما يستدعي المراهنة على القوى المعنوية وإشراك جميع الناس في المسؤولية، وفي صياغة المستقبل وتحديد الغايات، وإخضاع السلوك السياسي والاجتماعي إلى قيم أخلاقية واضحة ومشتركة تؤكد التعاون والتضامن، وأن من الضوابط المهمة لسلامة الفهم للإسلام التمسك بما أجمعت عليه الأمة واستقر عليه اعتقادها وفكرها، وتأسست عليه قيمها وأصولها وتقاليدها، وتفرعت عليه آدابها وأنواع سلوكها وعلاقاتها، لا الإجماع الأصولي فحسب الذي قد ينازع فيه منازعون... إنما ما هو أعمق من ذلك.